

## بروست و زمنه الضائع

لما أوغل أوغسطين وباسكار في التفكير في كينونة الزمان واستشعرَا صعوبة وهلامية المفهوم، فقا لا باستحالة تعريفه، مع إمكان إدراكه حدساً. واتجه بعض الفلاسفة الكناطيين نحو تأوله بوصفه مقولَةً متعلالية، وأخذ البعض بالفيزياء النيوتونية فنظرُوا إليه بوصفه كينونة مطلقة. ثم انساق العديد من الفلاسفة المعاصرِين نحو الأخذ ببنسبة أينشتاين فصار الزمن عندهم مجرد بعد رابع من أبعاد المكان، أما الفيلسوف ماكتاجارت، فلعله أراد سلوك أقصر طريق للتخلص من مهمة تعريف الزمان، فأناك وجوده أصلًاً. ولكن كل هذا وذاك لم يحسم الإشكالية الدلالية العصيبة التي تلف هذا المفهوم الغامض.

غير أنه إذا كان من المستساغ أن ينصرف الفيلسوف إلى تسطير بحث مفصل يستهدف تفكيك استشكالات المفهوم، وإذا كان من المنتظر أن ينصرف الفيزيائي إلى إنجاز دراسات موغلة في الاقيسة والترميز من أجل تعريف وتكميم هذه الكينونة الفيزيائية الهلامية، فإنه يبدو مستغرباً أن يوغُل أديب في كتابة أكثر من ثلاثة آلاف صفحة بحثاً عن "الزمن الضائع". وأغرب من ذلك أن يكون ذاك الكم من المصفحات مجرد سرد روائي.

لا يدرس بروست في موسوعة الروائية (بحثاً عن الزمن الضائع) كينونة الزمن لتحديد طبيعته على نحو ما يفعل الفيلسوف أو الفيزيائي، إنما يحاول القبض على معناه بإفلاته، ثم الانغماس في صيرورته الخلاقة، ليعود إليه لاحقاً بفعلي التذكر والإبداع السردي. هذا هو إيقاع الأسلوب المنهجي الذي ينتهجه بروست. إنه لا يفرغ zaman من محتواه، بل ينظر إليه كميزة حاملة لمحمولات نفسية وجودية. وهذا فارق منهجي مهم: إذ يبدو لك الفيلسوف وعالم الفيزياء وكأنهما يفتحان كفيهما متأهبين من أجل الإمساك بالزمان، واعتقال دلالته باستدخالها في صلب حدود مفاهيمية أو رموز رياضية، بينما لا يستعمل بروست مخالب اللوغوس. ولا أدوات القياس والتكميم الفيزيائية، بل تس肯ه روح فنان يت天涯 معنى الزمان بالانسياق رقمياً مع إيقاعه.

لكن الزمن تيار جارف، يحملنا في جوفه ولا نستطيع منه فكاكاً، فكيف نقارب ما نحن مستبطنين بداخله؟

لا شك أن بروست الذي تلقى تعليماً فلسفياً في معهد كوندرسه يدرك هذه الازدواجية التي تسم الموقف الإبستيمولوجي، ويعي عميقها الإشكالي، غير أنه في مسلكه نحو الزمن الصائغ يحاول عيش الزمن وتأمله في آن . . لكن ذلك يتم من خلال المنظور الفني وأولوية الفن على اللوغوس التي تبدو ثابتةً منهجاً في فكر بروست. فمنذ مقالته "مند سانت بروف" يفصح عن نقه للمنهجية العقلانية، حيث يقول: "أزداد يوماً بعد يوم تقليلًا من قيمة العقل". بل حتى الوجود بحسيته ومرئيته معطى لا قيمة له بالقياس إلى الوجود كما يتمظهر شعوراً واحساساً ذاتيين، حيث يقول: "الفنان شخص يعيش متفرداً"، ولا يعتبر الأشياء المرئية ذات قيمة مطلقة". ومعلوم أن بروست كان شديد التأثر بفيلسوف الديمومة (برجسون)، غير أنه يتمظهر أيضاً في نتاجه السردي وكأنه يشتغل بطريقة التحليل النفسي الفرويدي: إذ يشبه نمطه في السرد إلى حد ما طريقة التداعي الحر، حيث يتجلّى فعل السرد عنده وكأنه انسياق مع خواطر مخزون اللاوعي وباطن الذاكرة.

ثم إنه برجسوني أيضاً في توكيده على قصور العقلين الفلسفى والعلمى بأدواتهما المنطقية والاستقرائية عن سبر معنى الزمان. حيث يرى أن الديمومة الزمانية لا تُقارب إلا بالحدس. لكن إذا كان برجسون يحول منتوج الحدس إلى نسقٍ فلسفى، فإن بروست يحوله إلى استطيقاً. يمكن أن نقول إن عنده نوعاً من التأليه للزمان، إنه السيد النهائى الذى يهيمن على الإنسان والكون بأكمله.

وفي مقاربته لمعناه يصل بروست إلى الاعتقاد بأن للزمن قدرة فعلية على تحويل الوجود إلى وهم، فتصير الحياة بأكملها - بفعل أثر الزمن - مجرد وهم زائل، حتى أنه لا يبقى من مسلك لاستعادتها سوى الذاكرة. والفن باستثماره لما في الذاكرة، وبفعل طرائقه الاستطيقية في الإنتاج، هو وحده القادر على استعادة الزمن المفقود وتحوילه إلى كينونة جمالية أبدية. وهذا الاقتدار الفريد الذى يملكه الفن، يُفصح عنه بروست في خاتم موسوعته الروائية هذه، عندما يقول: "أن الذى تم اكتشافه وإيضاً حبه أخيراً هو أن الحياة الحقيقية، الحياة الوحيدة المعيشة باملاء، هي الأدب". أجل، إن متن "البحث عن الزمن الصائغ" هو ذاته مشبع بالامتداد الزمني. فعبر خمسة عشر عاماً وبروست يكتب ويعيد في كتابه الملحمي هذا، حيث تابع صيرورة حياة أربعة أجيال، مبتدعاً أكثر من ما ظلت شخصية.

لكن هذا المتن يبدو، ظاهرياً، كما لو كان سيرة ذاتية، حيث يبدأ من طفولة الراوى ليمتد عبر مختلف مراحل حياته اللاحقة. معلوم أن بروست حرص على استثمار الكثير من معطيات حياته الشخصية. بل الأغرب من هذا كله أنه إذا كان الأدباء يمتحنون من الذاكرة ما تبقى فيها من تجارب عاشوها من قبل ليؤثروا بها متونهم، فإن بروست كان روائياً يستغل بما يمكن أن أصفه بـ "تقنية المختبر"، حيث ينتظر التجربة قبل وقوعها ليعيشها فعلياً، حتى يحسن التعبير عنها في متنه. والشاهد على ذلك أنه عندما

وصل إلى وصف لحظة احتضار بيركوت (أحدى شخصيات روايته) ترك المقطع فارغاً، ولم يكتبه، وذلك انتظاراً لمرضه، فأجل الكتابة وهو العليل بداء الربو، إلى حين نطور مرضه وارتفاع الألم على نحو قوي ليذوق ما يشبه حاله الاحتضار، ثم أخذ في هذه اللحظة بالضبط يكتب مشهد موت بيركوت. ومن عجيب الصدف أنه لم يتأخر موته هو أيضاً، حيث توفي عام 1922 م، بمجرد إكماله للجزء السابع والأخير (الزمن المستعار) الذي سينشر عام 1927 م.